السنوسي محمد السنوسي
ماجستير الآداب في الدراسات الإسلامية

حاجتنا إلى الإنصاف فكرا وسلوكا

الإنصاف قيمة أساسية من القيم التي تقوم عليها الحياة، وتشتد إليها حاجة المجتمعات؛ بجانب أنها تدل على استواء الشخصية، ونزاهة الرأي، والابتعاد عن هوى النفس وإيثار الذات.

والإنصاف كما هو قيمة إسلامية دل عليها القرآن الكريم بالإشارة والمضمون، كما سنبين؛ فإنه أيضا قيمة تدركها الفطرة الصحيحة، ويركن إليها العقل المستقيم؛ بحيث لا يختلف اثنان على أهميتها، ولا يجادل أحد في ضرورتها.

الإنصاف قرين العدل

وإذا حاولنا استجلاء معنى الانصاف من حيث اللغة، فسنجد له معنيين: فالنون والصاد والفاء أصلان صحيحان: أحدهما يدل على شطر الشيء، والأخرى على جنس من الخدمة والاستعمال. فالأول نصف الشيء ونصيفه: شطره. وفي الحديث: «ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه». والإنصاف في المعاملة، كأنه الرضا بالنصف[1].

والإنصاف يعني العدل، وأن تعطي لغيرك مما تعطيه لنفسك. جاء في

(لسان العرب): الإنصاف: إعطاء الحق. وأنصف الرجل صاحبه إنصافا، وقد أعطاه النصفة. والنصفة: اسم الإنصاف، وتفسيره أن تعطيه من نفسك النصف؛ أي تعطيه من الحق كالذي تستحق لنفسك[1].

وجاء في (التوقيف على مهمات التعاريف): الإنصاف في المعاملة العدل؛ بأن لا يأخذ من صاحبه من المنافع إلا مثل ما يعطيه، ولا ينيله من المضار إلا كما ينيله. وقيل هو استيفاء الحقوق لأربابها واستخراجها بالأيدي العادلة والسياسات الفاضلة. وهو والعدل توأمان؛ نتيجتهما علو الهمة وبراءة الذمة باكتساب الفضائل واجتناب الرذائل[2].

إذن، الإنصاف قرين العدل، وهو من مادة النصف، أي كأنك تقسم الأمر نصفين بينك وبين الطرف الآخر، بما يستلزمه ذلك من التساوي وعدم الجور.

لماذا الإنصاف؟

مما تشير إليه المعاني اللغوية لمصطلح الإنصاف، يتبين لنا أنه يفترض ويستلزم عدة أمور؛ منها:

- وجود طرف ثان؛ فالإنصاف سلوك بينك وبين الآخرين؛ فهو علاقة في اتجاهين لا اتجاه واحد.
- قسمة الشيء بالعدل مع الآخر؛ حتى يكون الإنصاف قرين العدل؛ وإلا كانت قسمة جائرة.
- وجود أرضية مشترك بينك وبين الآخرين؛ وإلا فعلى أي شيء تقع القسمة!

هذه المعاني التي نستلهمها من التعريف اللغوي، تؤيدها دلالات المصطلح من الزاوية الاجتماعية. فالإنسان مدني بالطبع، وكائن اجتماعي؛ ووجوده وسط مجتمع يعني أن اتفاقا قد يقع بينه وبين المحيطين به، ممن يشكلون جميعا نسيج المجتمع، كما قد يعني أن اختلافا أيضا قد يحدث بينهم.

وهذا الاختلاف الوارد -ما دامت طباع الناس متفاوتة، وأخلاقهم شتى، ومصالحهم ليست بالضرورة متلاقية- يستلزم وجود قيمة الإنصاف؛ حتى يمكن حل هذا الاختلاف، أو إدارته، بما يجنب الأطراف كافة ويلات الصراع والشقاق.

إذن، الإنصاف قيمة ضرورية يستدعيها اجتماع الناس وتعايشهم.. ومعناها اللغوي يستبطن التحقق بالعدل وعدم الانسياق وراء الذات وأطماعها.

القرآن يؤسس للإنصاف

ومصطلح الإنصاف مع أنه لم يرد في القرآن الكريم، فإن مضمونه ثابت فيه، بل وفي كثير من آياته وتوجيهاته!

- فالقرآن الكريم ابتداء يقرر أن الله تعالى خلق الناس مختلفين، وأن غاية هذا الاختلاف ينبغي أن تتوجه إلى التعارف والتعاون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات:١٣).
- كما أمر القرآن صراحة بألا يكون الاختلاف مدعاة للجور وعدم العدل: فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ (المائدة:٨).

أي: كونوا قوامين بالحق لله عزوجل، لا لأجل الناس والسمعة. وكونوا شهداء بالعدل لا بالجور. ولا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم؛ بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقا كان أو عدوا[1].

- وفي توجيه آخر يتصل بالأخذ على يد المخطئ، يأتي الحديث عن ضرورة إيقاع العقاب على قدر الجريمة بلا تجاوز، فقال تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ (النحل:١٢٦).

ففي هذه الآية يأمر الله تعالى بالعدل في الاقتصاص والمماثلة في استيفاء الحق، إن أخذ منكم رجل شيئا، فخذوا منه مثله. وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل؛ كما في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الشورى:٤٠)[2].

- كما أوضح القرآن الكريم أهمية التمييز في النظر للمخالفين، فلا نعمم الحكم عليهم، ولا نأخذ بعضهم بجريرة بعض؛ فقال عن أهل الكتاب:

﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ (آل عمران:١١٣)، وقال ايضا: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ (آل عمران:٧٥).

ففي هذه التوجيهات وغيرها نرى الإنصاف يتبدى قيمة وأحكاما وأخلاقا يلتزم بها المسلم في تعاملاته مع الآخرين، حتى عند إيقاع العقوبة وإنفاذها، وحتى عند التعامل مع من يختلفون معه في الاعتقاد؛ فما بالنا بما دون ذلك من درجات الاختلاف!

السيرة تطبيق للإنصاف

وقد جاءت السيرة النبوية تطبيقا عمليا للإنصاف، وعدم الجور على حقوق المخالفين، بالرغم من مخالفتهم.

فحين صدر الأمر للنبي ﷺ بالهجرة، ترك علي بن أبي طالب بمكة ليرد على الناس ودائعهم! رغم مخالفتهم، بل محاربتهم النبي ﷺ.. أليس هذا إنصافا!

وحين قدم النبي ﷺ المدينة، عقد مع سكانها من غير المسلمين عقدا للتعايش، ضمنه «وثيقة المدينة»؛ التي قررت لكل طرف من أطرافها حقوقه وواجباته؛ بحيث قام هذا التعايش على التراضي وإنصاف الآخر.

ومما جاء في «وثيقة المدينة» وبلغ من الإنصاف غايته:

- وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم؛ إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته.
- وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم؛ وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم.
- وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.
- وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.
- وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.
- وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله؛ وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره[1].

فهل بعد ذلك إنصاف! حقا لقد كانت هذه «الوثيقة» تجربة رائدة لم يشهد لها التاريخ مثيلا من قبل، ولم يقترب من فضاءاتها إلا بعد ذلك بقرون متباعدة!

الإنصاف فكرا

والإنصاف كما أشرنا قيمة ضرورية على مستوى الفكر: أي إدراك أنه لا مفر من الاختلاف بين الناس، في العقائد والآراء والطباع والعادات. المهم كيف نتعامل مع هذا الاختلاف، ولا نحوله إلى صراع؟ وكيف نجعله لونا من ألوان التعدد والثراء والتكامل، لا التناقض؟

فالإنصاف على مستوى الفكر يعني:

- إدراك أن الاختلاف سنة من سنن الله بين خلقه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود:١١٨)، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩).

بين سبحانه أن الإيمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾: بحيث لا يخرج عنهم أحد. ﴿جَمِيعًا﴾: مجتمعين على الإيمان لا يتفرقون فيه ويختلفون، ولكنه لم يشأ ذلك، لكونه مخالفا للمصلحة التي أرادها الله سبحانه. ولما كان النبي ﷺ حريصا على إيمان جميع الناس، أخبره الله بأن ذلك لا يكون؛ لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة والمصالح الراجحة لا تقتضي ذلك[٧].

- عند عرض آراء الآخر المختلف معك، لا يجوز أن تعرضها بما يخالف تصوره عن نفسه؛ بل تعرض رأيه في دقة وأمانة أولا، ثم بعد ك تبدي اختلافك معها كما ء، بالحجة والبرهان. والقرآن ريم معلمنا في ذلك؛ فقد بسط حجج المعاندين كما يقولونها بدقة، ثم كر عليها بالهدم والنقض.

- الاختلاف الفكري، حتى في العقائد، ليس مدعاة للتصارع والتقاتل؛ فالقانون في ذلك: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦). والمسلمون لم يحاربوا غيرهم لأنهم يختلفون معهم في الدين، وإلا ما قبلوا منهم الجزية وأبقوهم على دينهم.

- إذا كان الاختلاف في الاعتقاد أمر مقبولا، من حيث وجوده؛ بمعنى ألا نسعى لإزالته، لأن الإسلام لا يرضى بأن يدخل الناس فيه مكرهين.. فإن الاختلاف فيما دون الاعتقاد، مثل الاختلاف الفكري والمذهبي، ينبغي أن يكون أكثر قبولا. وهذا من الإنصاف؛ لأننا بذلك نعطي لآراء غيرنا الحق في الوجود، كما نعطي لآرائنا، ولا نعمل على تشويهها، فضلا عن إزالتها.

وكم ضاعت جهود وتبددت طاقات، من عدم القبول بالاختلاف والتعدد، حتى مع من يشتركون في أصل الاعتقاد والإيمان؛ بسبب الحرص على إنفاذ وجهة نظر ما، أو الانتصار للرأي الشخصي، والغفلة عن سنة الله تعالى في وجود التعدد والتنوع!

الإنصاف سلوكا

وكما أننا بحاجة للإنصاف على مستوى الفكر، فنحن أيضا بحاجة للإنصاف على مستوى السلوك؛ وهذا الأمر الأخير يتمثل في:

- حفظ حقوق الآخرين وعدم الاعتداء عليها: فدماء الناس وأعراضهم وأموالهم مصونة محفوظة، ولا يجوز الاعتداء عليهم. وهذه الحقوق مما أجمعت عليه الشرائع السماوية، وكانت محل اتفاق بينها، مهما اختلفت في الأحكام والتفاصيل. قال القرافي: «الكليات الخمس: حفظ الدماء والأعراض والأنساب والعقول والأموال، وأنواع الإحسان كإطعام الجوعان وكسوة العريان، وغير ذلك مما لم تختلف فيه الشرائع»[٨].

ولهذا حرم الإسلام السرقة، والرشوة، والاختلاس، والزنا، وسفك الدماء، وغير ذلك من الممارسات التي تعتدي على حقوق الآخرين.

- ترك التباغض والتشاحن: لأن البغضاء والشحناء تعبران عن إيثار الذات، وتدفعان إلى تحقيق المصلحة الشخصية بالوسائل غير المشروعة؛ فضلا عن آثارهما الوخيمة في إضعاف النسيج الاجتماعي. عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة. لا أقول: إنها تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[٩].

ما أحرانا بأن يكون الإنصاف سلوكا لنا، مع من نحب ومع من نخالف؛ فنعطي كل ذي حقه حقه، ونرجو للناس من الخير ما نرجو لأنفسنا؛ لا نظلم ولا نظلم؛ وإنما عدل وقسط، وتعاون على البر والتقوى.

الهوامش

١- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٤٣١، ٤٣٢.

٢- لسان العرب، ابن منظور، ٣٣٢/٩.

٣- التوقيف على مهمات التعاريف، عبد الرؤوف المناوي، ص:٦٥.

٤- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦٢/٣. بتصرف.

٥- المصدر نفسه، ٦١٣/٤. بتصرف.

٦- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، ٥٩-٦٢.

٧- فتح القدير، الشوكاني، ٥٣٩/٢.

٨- شرح تنقيح الفصول، القرافي، ص:١٦٤.

٩- أخرجه أبو داود، والترمذي، وأحمد.